حكايات من التاريخ

٤

حكاية الفيلة

الدكتور
محمد عمر الحاجي

رسوم : إياد عيساوي

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية ـ دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ ـ هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ ـ فاكس : ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

ومَنْ يُزَوِّجُنِيْ... وأَنَا الفَقِيْرُ

قالَ أَبُو وَداعَةَ:

كُنْتُ أُجالِسُ (سَعِيْدَ بْنَ المُسَيِّبِ) رَحِمَهُ اللهُ تَعَالى ، فَفَقَدنيْ أَيَّاماً ، فَلَمَّا جِئْتُهُ؛ قالَ: أَيْنَ كُنْتَ؟!

قُلْتُ: تُوُفِّيَتْ زَوْجَتِي ، فاشْتَغَلْتُ بِهَا..

فَقَالَ: هَلاَّ أَخْبَرْتَنَا ، فَشَهِدْنَاهَا؟!

ثُمَّ قالَ: هَلاَّ أَحْدَثْتَ امْرأة غَيْرَهَا؟

فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ الله ، ومَنْ يُزَوِّجِنُي وما أَمْلِكُ إلا دِرْهَمَيْنِ؟!

فَقالَ: إِنْ أنا فَعَلْتُ تَفعلْ؟

قُلْتُ: نَعَمْ!

ثُمَّ حَمِدَ الله تعالى ، وَصَلَّى عَلَى النَّبيِّ ﷺ ، وَزَوَّجَنِي عَلى دِرْهَمَيْنِ...!

قالَ أبُو وَدَاعَةَ: فَقُمْتُ وما أَدْرِيْ ما أَصْنَعُ مِنَ الفَرَحِ ، فَصِرْتُ إلى مَنْزِلِيْ ، وَجَعَلْتُ أَتَفَكَّرُ مِمَّنْ آخُذُ وأَسْتَدِيْنُ ، وصَلَّيتُ المَغْرِبَ ، وكُنْتُ صَائِماً ، فَقَدَّمْتُ عَشَايَ لأفطِرَ وكان خُبْزاً وزَيتاً.

وَإِذَا البَابُ يُقْرَعُ ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟

قالَ: سَعِيْدٌ!

فَفَكَّرْتُ في كلِّ إِنْسَانٍ اسْمُهُ سَعِيْدٌ إلا سَعِيْدَ بْنَ المُسَيِّبِ ، فَإِنَّهُ لَمْ يُرَ مُنْذُ أَرْبَعِيْنَ سَنَةً إلا ما بَيْنَ بَيْتِهِ والمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ.

فَقُمْتُ وخَرَجْتُ ، وإِذَا بسَعِيْدِ بْنِ المُسَيِّب ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُ قَدْ بَدَا لَهُ.

فَقُلْتُ: يَا أَبَا مُحَمَّدٍ! هَلاَّ أَرْسَلْتَ إِلَيَّ فآتِيْكَ؟!

قال: لا! أَنْتَ أَحَقُّ أَنْ تُؤْتىٰ.

قُلْتُ: فَمَا تأْمُرُنِي؟

قالَ: رأَيْتُكَ رَجُلاً عَزْباً قد تَزَوَّجتَ ، فَكَرِهْتُ أَنْ تَبِيْتَ اللَّيْلَةَ وحْدَك.

وَهذِهِ امْرَأَتُكَ!!

فإِذَا هِيَ قَائِمَةٌ خَلْفَهُ في طُوْلِهِ ، ثُمَّ دَفَعَها

في البَابِ وَ رَدَّ البابَ ، فَسَقَطَتِ المَرْأَةُ مِنَ الحَيَاءِ ، فاسْتَوْثَقْتُ مِنَ البَابِ ، ثُمَّ صَعِدْتُ إلى السَّطْحِ ، فنَادَيْتُ الجِيْرَانَ.

فَجَاؤوِني ، وَقَالوا: مَا شَأْنُكَ؟

فَقُلْتُ: زَوَّجَنِي سَعِيْدُ بْنُ المُسيِّبِ اليَوْمَ ابْنَتَهُ ، وَقَدْ جَاءَ بِهَا عَلَى غَفْلَةٍ ، وَهَاهِيَ في الدَّارِ. فَنَزَلوا إليها.

وَلَمَّا بَلَغَ الخَبرُ أمِّي؛ جَاءَتْ مُسْرِعَةً ، وقَالَتْ: وَجهِيْ مِنْ وَجْهِكَ حَرَامٌ إِنْ مَسَسْتَهَا قَبْلَ أَنْ أُصْلِحَها ثَلاثَةَ أَيَّامٍ...!

فأَقَمْت ثَلاثاً ، ثُمَّ دَخَلْتُ بِهَا ، فإِذَا هِيَ مِنْ أَجْمَلِ النَّاسِ ، وأَحْفَظِهِمْ لِكِتَابِ اللهِ تَعَالىٰ ، وأَعْلَمِهِمْ بِسُنَّةِ رَسُولِ الله ﷺ ، وأعْرَفِهِمْ بِحَقِّ الزَّوْجِ!

قالَ أَبُو وَدَاعَةَ: فَمَكَثَ شَهْرَاً لا يأْتِيْنِي ولا آتِيْـهِ ، ثُـمَّ أَتَيْتُـهُ بَعْـدَ شَهْـرٍ وَهُـوَ فـي حَلَقتِـهِ ، فَسَلَّمْـتُ عَلَيْـهِ ، فَـرَدَّ عَلَـيَّ؛ وَلَـمْ يُكَلِّمْنِي حتَّى انْفَضَّ مَنْ في المَسْجِدِ... فَلَمَّا لَمْ يَبْقَ غَيْرِي ، قالَ: مَا حَالُ ذَلِكَ الإِنْسَانِ؟

قُلْتُ: هُوَ عَلَى ما يُحبُّ الصَّدِيْقُ ، ويَكْرَهُ العَدُوُّ.

وكـانـت بِنْـتُ سَعِيْـدٍ هَـذِهِ قَـدْ خَطَبَهـا عَبْدُ المَلِكِ ـ الخَلِيْفَةُ الأُمَوِيُّ المَعْرُوفُ ـ لابْنِهِ الوَلِيد ، وذَلِكَ حِيْنَ وَلاّه العَهْدَ ، فأَبى سَعِيْـدُ بْـنُ المُسَيِّـب أَنْ يُـزَوِّجَـهُ!! وَعَلَّقـتِ الجَدَّةُ عَلَى الحِكَايَةِ بقَوْلِهَا:

لقَدْ رَفَضَ والِدُهَا أَنْ يُزَوِّجَهَا مِنْ وَلِيِّ عَهْدِ الأُمَوِيِّيْنَ ، وزَوَّجَها مِنْ أَفْقَرِ طُلابِ

العِلْـمِ ، وَذَهَـب ذَلِـكَ مَثَـلاً ، فَيُقَـالُ: زَوَاجٌ بِدِرْهَمَينِ!!!

حِكَايَةُ الفِيَلَةِ!!

... وفي بِلادِ الهِنْدِ حَدَثَتْ هَذِهِ القِصَّةُ الرَّائِعَةُ:

كان يا مَا كان! كانَ في قَدِيْمِ الزَّمَانِ رَجُلٌ يَعِيـشُ مِـنْ صَيْـدِ الفِيَلَـةِ ، فحـدث مَعَـهُ مَا مُلَخَّصُهُ:

يَقول: اسْتَخْفَيْتُ مَرَّةً في شَجرَةٍ كَبِيْرَةٍ ، عَالِيَةٍ ، كَثِيْرَةِ الوَرَقِ ، في غَيْضَةٍ كانَتْ تَجْتَاز بها الفِيَلَةُ مِنْ رَوَافِدِ الأَنْهَارِ الَّتي تَرِدُهَا.

... فاجْتَازَ بِيْ قَطِيْعٌ مِنْهَا ، وكانت عَادَتِيْ أَنْ أدعَ القُطْعَانَ تَجُوْزُ حَتَّى تَبْلُغَ آخِرَ

فِيْلٍ مِنْهَا ، فأَرْمِيْهِ بِسَهْمٍ مَسْمُومٍ في بَعْضِ مَقَاتِلِهِ ، فتَجْفُلَ الفِيلَةُ... فإذَا ماتَ الفِيْلُ المَجْرُوْحُ ، نَزَلْتُ فاقْتَلعْتُ أنْيَابَهُ ، وَسَلخْتُ جِلْدَهُ ، وأخَذْتُ ذٰلِكَ فَبِعْتُهُ في البِلادِ...

فَلَمَّا اجْتَاز بي هذا القَطِيْعُ ، رَمَيْتُ آخِرَ فِيْلٍ كانَ فِيْهِ ، فخَرَّ فاضْطَرَبَتِ الفِيلَةُ ، وأَسْرَعَتْ عَنْهُ.

فإذا أعْظَمُهَا قَدْ عَادَ فَوَقَفَ عَلَيْهِ ، وتأَمَّل السَّهْمَ والجُرْحَ ، ورَجَعَتْ مَعَهُ الفِيَلَةُ ، ووَقفَتْ بِوُقُوفِهِ ، فَما زالَ قائِماً ، والفِيْلُ المَجْرُوحُ يَضْطَرِبُ إلى أَنْ ماتَ... فَضَجَّ ذٰلِكَ الفِيْلُ ضَجِيْجاً عَظِيْماً... وضَجَّتِ الفِيَلَةُ مَعَهُ ، وانْتَشَرَتْ في الغَيْضَةِ ، فَفَتَّشتها شَجْرَةً شَجَرَةً ، فأَيْقَنْتُ بالهَلاَكِ.

وانْتَهَى الفِيْلُ الأَعْظَمُ إلى الشَّجَرَةِ الَّتي

أَنَا فِيْهَا ، فَلَمَّا رآنِيْ احْتَكَّ بالشَّجَرَةِ ، فإذَا هِيَ قَدْ انْكَسَرَتْ على عِظَمِهَا وضَخَامَتِهَا ، وسَقَطْتُ أنا والشَّجَرةُ إلى الأرضِ ، فَلَم أَشُكَّ في أَنَّ الفِيْلَ يَدُوسُنِيْ!

.. وإِذَا بِهِ قَدْ جَاءَ حتَّى وَقَفَ يتأَمَّلُنِيْ... وأَحْجَمَتِ الفِيَلَةُ عَنِّيْ.

فَلَمَّا رأى الفِيْلُ العَظِيْمُ قَوْسِيَ وَسَهَامِي ، لَفَّ خُرْطُوْمَهُ عَلَيَّ بِرِفْقٍ ، وشَالَنِي ـ حَمَلَنِيْ ـ مِنْ غَيْرِ أَذَىٰ...

ووَضَعَنِي عَلى ظَهْرِهِ ، ورَجَعَ يُرِيْدُ الطَّرِيْقَ الَّتي كانَ أَقْبَلَ مِنْهَا ، وهَرْوَلَ ، وهَرْوَلَتِ الفِيلَةُ خَلْفَهُ ، حَتَّى بَلَغَ الماءَ ، والفِيَلَةُ مَعَهُ.

فإِذَا قَدْ خَرَجَ عَلَيْهَا ثُعْبَانٌ عَظِيْمٌ يَنْفُخُ ،

فتـأخَّـرتِ الفِيَلَـةُ ، وأَشـالَ الفِيْـلُ الأَعْظَـمُ خُرْطُوْمَهُ ، فَلَفَّهُ عَلَيَّ ، وأنْزَلَنِي ، وتَرَكَني عَلَى الأَرْضِ ، وأخَذَ يُومِيءُ بِخُرطُوْمِهِ إِلَى الثُّعْبَانِ بِرِفْقٍ ، وتَمَلُّقٍ...!

فَسَدَّدْتُ سَهْماً إلى الثُّعْبَانِ ، ورَمَيْتُهُ ، فأَصَبْتُهُ ، وتَابَعْتُ رَمْيَهُ... فانْصَرَفَ... والدِّمَاءُ تسِيْلُ مِنْهُ...

فمَا كانَ مِنَ الفِيْلِ العَظِيْمِ إلا أَنْ تَقَدَّمَ إِلَيْهِ فَدَاسَهُ ، ثُمَّ عَادَ إِلَيَّ ، فأَخَذَنِيْ بِخُرْطُومِهِ ، وجَعَلَنِي علَى ظَهْرِهِ ، وأَقْبَلَ يُهَرْوِلُ ، والفِيَلَةُ خَلْفَهُ.

فَجَاءَ بي إلى غَيْضَةٍ لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُهَا ، أَعْظَمُ مِنَ الَّتي أَخَذَنِي مِنْهَا ، وأَبْعَدَ بِعِدَّةِ فَرَاسِخَ ، وَفِيْهَا فِيْلَةٌ مَيِّتَةٌ ، لا يُحْصِيْهَا إلا

اللهُ تعالى ، وأكْثَرُهَا قَدْ بلِي جَسَدُهُ ، وبَقِيَتْ عِظَامُهُ.

فَمَا زَالَ يَتتَبَّع الأنْيَابَ ويَجْمَعُهَا ، ويُوْمِيءُ - يشيرُ - إلى فِيْلٍ فِيْلٍ ، حَتَّى لَمْ يَدَعْ هُنَاكَ ناباً إلا جمَعَهُ ، وأرْكَبَنِي علَى ظَهْرِهِ ، وأخَذَ بي في طَرِيْقِ العمَارَةِ ، واتَّبَعَتْهُ الفِيَلَةُ.

فلَمَّا شارَفَ القُرَى؛ وَقَفَ ، وأوْمَأ إلى الفِيَلَةِ ، فَطَرحَتْ أحْمَالَها ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ مِنْهَا شَيءٌ ، ثُمَّ أنْزَلَنِي بِخُرْطُوْمِهِ بِرِفْقٍ ، وتَرَكَني عِنْدَ الأنْيَابِ ، وَقَدْ صارَت تلاً عَظِيْماً هائلاً..!!

فَجَلَسْتُ عِنْدَها مُتَعَجِّباً مِنْ سَلامَتِي.

ورَجَعَ الفِيْل يُرِيْدُ الصَّحْراءَ ، ورَجَعَتِ الفِيَلَةُ بِرُجُوْعِهِ ، وأَنَا لا أُصَدِّقُ بِسَلامَتِيْ ، ولا بِمَا شاهَدْتُ مِنْ عِظَمِ فِطْنَةِ الفِيْلِ.

فَلَما غَابَتِ الفِيَلَةُ عَنِّي؛ مَشَيْتُ إلى أَقْرَبِ القُرى إليَّ ، واستأجَرْتُ خَلْقاً كَثِيراً ، حَتَّى خَرَجُوا مَعِي ، وحَمَلُوا تِلْكَ الأنْيَاب ، في أيَّامٍ إلى القَرْيَةِ!!

وما زِلْتُ أَبِيْعُهَا في تِلْكَ المُدُنِ ، حَتَّى حَصَلَ لِيْ مالٌ عَظِيمٌ ، كان سبَبَ يَسَارِي ، وغِنَايَ عَنْ صَيْد الفِيَلَةِ!!

وهَذَا يَوْمُ مَصْرعِيْ!!!

في عَهْـدِ الخِلافَـةِ الأُمَوِيَّـةِ جَرَتْ أَحْدَاثُ هَذِهِ الحِكَايَةِ:

انْفَرَدَ (الحَجَّاجُ بْنُ يُوْسُفَ الثَّقَفِيُّ) يَوماً مِنْ عَسْكَرِهِ ، وَذَلِكَ فِي مِنْطقَةِ (وَاسِطٍ) بالعِرَاقِ.

فَمَرَّ ببُسْتَانِيٍّ يَسقي أَشْجَارَ بُسْتَانِهِ ، فَوَقفَ مَعَهُ.

فأَرَادَ (الحَجَّاجُ) أنْ يَسْتَفْسِرَ مِنْهَ على الأَحْوالِ ، فسأَلَهُ: يَا بُسْتَانِيُّ ، كَيْفَ حَالكُم مَعَ (الحَجَّاجِ بْنِ يُوْسُفَ)؟

فَقَال البُسْتَانِيُّ: لَعَنَهُ الله! ... المُبِيْدُ... الحَقُوْدُ... الحَسُوْدُ... سَافِكُ الدِّمَاءِ بِغَيْرِ حِلِّهَا... المُفَرِّق بَيْنَ الحَبِيْبَةِ وخَلِيْلِهَا.. جَاعِلُ النِّسَاء أَيَامَىٰ ـ أَيْ: أَرَامِل ـ والوِلْدَان يَتَامَى ، والرُّوْح شَيْئاً مَعْدُوماً.... والمَال إِرْثاً مَقْسُوماً...!!

ثُمَّ رَفَعَ البُسْتَانِيُّ يَدَيْهِ بالدُّعَاءِ ، وكانَ مِمَّا قَالَهُ:

يَا رَبِّ! عَجِّلْ بِهِ ـ بالحَجَّاجِ ـ بالانْتِقَامِ ، واصْرِفْهُ ومَضَرَّتَهُ عَنِ المُسْلِمِيْنَ والإِسْلامِ..!

فَقَالَ الحَجَّاجُ: يَا هَذا! أَتَعْرِفُنِيْ؟

قَالَ البُستَانِيُّ: لا!

فَقَالَ: أَنَا الحَجَّاجُ بْنُ يُوْسُفَ الثَّقَفِيُّ..!

فَرَأى البُسْتَانِيُّ: أَنَّ دَمَهُ لابُدَّ سَائِحاً... وأَنَّ مَوْتَهُ قَدْ بَدَا لائِحاً... فَمَا كانَ مِنْهُ إلا أَنْ رفَعَ عَصَاهُ ، وَقالَ لِلْحَجَّاجِ: أَتَعْرِفُنِيْ؟ أَنَا أَبُو ثَوْرٍ المَجْنُونُ ، وهَذَا يَوْمُ مَصْرَعي!.. وأَزْبَدَ ، وأَرْغَىٰ ، وهَاجَ... وَعَدَا ، وأَرَاد أَنْ يَضْـرِبَ رَأْسَ الحَجَّـاجِ بـالعَصَـا ، فَضَحِـكَ

الحَجَّاجُ مِنْهُ.. وَقَالَ: لَقَدْ عَفَوْتُ عَنْكَ بِذَكائِكَ وَسُرْعَةِ بَدِيْهَتِكَ!!

والحَمْدُ لله رَبِّ العَالمينَ.

* * *